مجلة الراصد لدراسات العلوم الاجتماعية
The Observer Journal for Social Studies Sciences
المجلد: (3)
العدد: (01)
2023

موقف الفكر السلفي والعلماني من الحداثة الغربية.

The position of Salafist and secular thought on Western modernity.

علي بوسكرة [1] *

[1] جامعة محمد لمين دباغين سطيف2،

aliboussakra@gmail.com

تاريخ الاستلام :	تاريخ القبول:	تاريخ النشر:
2023/01/09	2023/01/11	2023/01/15

- الملخص:

المتأمل لوضع الحركة الفكرية العربية الإسلامية سيدرك أن أحد أهم أسباب حالة التأزم والانحباس والعطالة التي تعيشها هو الهيمنة الحضارية الغربية، فقد شكل ظهورها بداية هزة في ثقافتنا العربية مما أنتج توتراً على الكثير من الأصعدة ، فأدى إلى صراع المركزيات الذي ولد هو الأخر ثنائية التراث والحـــداثة. ولعل أهم ثنائيتين برزا في الفكر الحديث هما الخطاب السلفي وكذا العلماني والسؤال المراد معالجته في هذا المقال هو: ما الدور الذي لعبته الحداثة في ظهور الفكر العربي الحديث والمعاصر؟ وما موقف التيار السلفي والعلماني منها؟ وهل استطاعا الخطابين السلفي والعلماني تأسيس نصوص فلسفية كتلك الموجودة في الغرب؟ أم أنهما فشلا في ذلك وكان طرحهما أيديولوجي أكثر منه معرفي؟.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، السلفية، العلمانية، الفكر العربي.

Abstract :

The contemplator of the state of the Arab-Islamic intellectual movement will realize that one of the most important causes of the state of crisis, entrapment and inactivity in which it is experiencing is the Western civilizational hegemony. Perhaps the two most important dualities that emerged in modern thought are the Salafist discourse as well as the secular one. The question to be addressed in this article is:

*- المؤلف المرسل

What role did modernity play in the emergence of modern and contemporary Arab thought? And what is the position of the Salafist and secular movement on it? Were the Salafi and secular discourses able to establish philosophical texts like those found in the West? Or did they fail to do so, and their proposal was more ideological than cognitive?
Keywords: Modernity, Salafism, secularism, Arab thought.

مقدمة :

إشكالية التراث، التاريخ ، والوعي التاريخي لها مكانة خاصة في أي ذات فردية(أشخاص) كانت أو جماعية(أمم وشعوب) تتحرك بتحركها وتثبت بثباتها، والتاريخ نفسه يشهد على ذلك فهي لم تغب عن ساحة الفكر الإنساني على مرّ الأزمنة والعصور وإن اختلفت صور حضورها من زمن إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر، والسبب أن إشكالية الوعي التاريخي مرتبطة أشد الارتباط بكينونة الإنسان ووجوده وحقيقته، وكمثال على ذلك فإن حضور الخطاب النّهضوي العربي الحديث والمعاصر دليل على وعي ذاتي بحالة الأزمة أولا، ودليل على أن النهضة لا يجب أن تنشأ إلا في تربة ثقافية تنتمي إليها، وكل هذا أفرز إشكالية الاهتمام بمبحث التراث والتاريخ.

وقد نلامس هذه الحقيقة بصورة واضحة في النهضة الأوروبية التي تحققت فعلا بفضل اهتمامها بتاريخها وتراثها ، فهي ظهرت وتحققت نتيجة لشروط تاريخية معينة حددت أفق التفكير الفلسفي الغربي، فكان للإصلاح الديني والثورة على الكنيسة وعلى المقدس، والثورة ضد القيود والنماذج النمطية التي كبحت عنان العقل وحدت من نشاطه وفعاليته ، والحركة الفكرية التي تمثلت في إحياء التراث القديم(التراث اليوناني والروماني)، وكذا الاكتشافات العلمية الكبرى التي حصلت على يد غاليلي وكوبرنيك ونيوتن الأثر الواسع والانعكاس الكبير على تطور الفكر في أوروبا وتحقيقه للنهضة. وعليه فالنهضة الأوروبية لم تولد من العدم أو وُجِدَتْ هكذا فجأة، وإنما ظهرت في إطار تحول تدريجي مس أوروبا في جميع مجالات الحياة الدينية ، السياسية ، الاجتماعية ، الاقتصادية...إلخ، لذلك تعرف بأنها حركة بعث وإحياء للتراث القديم نقل المجتمع الأوروبي من عصر الظلام إلى عصر الأنوار، ونتج عن كل ذلك تطور في العقل الأوروبي الذي لم يقف عند حد الاشباع البيولوجي الحسي للذات البشرية، بل تجاوز ذلك بكثير حتى وصل إلى حد اختراق النزوات المادية مؤسسا بذلك فعلا معرفيا، فكريا ، تاريخا

محققا به ما أسماه بالنهضة التي تفاعلت فيها الثورة الفكرية بالثورة الثقافية مع الأحداث التاريخية لتقـود أوروبا من الجمـود والتحجر والانغــلاق المقيت الذي كان سائدا وكانت تعيشه أوروبا إلى الانفتـاح والتطور والوعي بتراثها وتاريخها.

وإذا كانت أوروبا تقدمت بفضل ثورتها على المقدس فالأمر يختلف في الحضارة العربية الإسلامية لأنّ الديـــن الإسلامي فيها يعتبر الأساس والمصدر القوي في تطورها ونهضتها ، ولو أمعنا النــظر قليلا لوجدنا أنه بمجيء الإسلام بعثت حياة جديدة في أمة العرب انتقلت من خلالها من الظلــمة إلى النور ، ومن التبعثر إلى النظام ، ومن اللاعقل إلى العقل...، ويرجع هذا للمبادئ والقيم التي يحملها وكذا للخصائص والمميزات التي ينفرد بها عن الأديان الأخرى والتي من أهمها "التوحيد" ، "العالمية" ، الشمولية" ، "القصدية"...الخ، هذه المميزات والخصائص كانت منطلقا للإنسان المسـلم نحــو التأسيس لمعــرفة اسلامية حقة(صحيحة) نادت بحريــة الفـكر، شجعت العلم ، دعت إلى المساواة بين الناس ، اهتمت بالعقل ، نقلت الإنسان والبشرية جمعاء من الضيق إلى الفسحة ومن العنصرية إلى الوحدة...كل هذا أنتج الحضارة العربية الإسلامية وجعلها رائـــدة في ذلك الوقت.

إضافة إلى وجود الإسلام فإنّ الحضارة العربية الإسلامية بنت وطورت علومها ومعارفها ليس بالتقوقع على الذات ، وانما بالانفتاح على الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة بفضل حركـــة الترجمة والنــقل التي قام بها الفلاسفة المسلمين الأوائل ، فترجموا ونقلوا وشرحوا علــوم ومعــارف الثقافات الأخرى المختلفة، ففهموها وتمكنوا منها، فألـفوا وكتبوا فشيــدوا حضارة عــربية إســلامية عظيــمة مزدهــرة ومختــلفة لها طابعها الخاص المتفردة به.

وللأسف فدوام الحال من المحال ، فبعد التقدم والازدهار الذي عاشته الحضارة العربية الإسلامية جاء التدهور والسقوط الذي لم يكن صدفة ولا مفاجأة ، بل كان نتيجة طبيعية لها أسبابها وظروفها ، فكان لانتشار الجهل والضعف وفساد الأخلاق ، وما علق بالإسلام من بدع وضلالات، والابتعاد عن أصول العقيدة الصحيحة السليمة... الأثر الكبير على حالة التدهور والانحطاط التي آل إليها المجتمع العربي الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية مما جعلها قبلة لأطماع الكثير من الدول التي اختلف حالها عن ذي قبل ، فكان للاحتلال العسكري والغزو الثقافي الذي رافقه ، وعجز الدولة الإسلامية عن المواجهة بسبب الفارق الشاسع بين التقدم العلمي والتفوق الاقتصادي في أوروبا ، وما كان

عليه المجتمع العربي الاسلامي من تخلف ثقافي وتأخر اقتصادي الأثر البالغ في توقف الحركة الفكرية عند العرب وتطورها عند الغرب.

لقد فرضت هذه التحولات التاريخية على المفكرين العرب المسلمين ضرورة إيجاد حل للخروج من أزمة التأخر التاريخي والتشوه الثقافي؛ فكان لزاما عليهم إعادة بناء العلاقة من جديد مع الغرب لمعرفة واكتشاف أسباب تفوقه ، وهنا صار الشرخ والانشطار بين المفكرين المسلمين فلم يتردد فريق في تبني كل ما في الفكر الغربي من منجزات علمية ونظريات فلسفية معتقدا أن إلغاء موروثنا الثقافي والانتماء للغرب ، والارتماء في أحضانه هو السبيل الوحيد لتحريك التـــاريخ الإسلامي الذي ظل مدة زمنية طويلة يمارس مبدأ الرفض والمعارضة لكل جديد، ودليلهم في ذلك أن الوعي الغربي تطور بعد القطيعة التي أحدثها مع النماذج النمطية القديمة ، فبعد ما كان يعاني من سيطرة الفكر الكنسي استطاع بفضل قطيعته تجاوز أزماته وتحقيق نهضته المعرفية، بينما وقف فريق آخر موقف الرافض للفكر الغربي معتقدا أن الخلاص يكون بالعودة إلى منابع الإسلام الأولى وهذا ما نادت به كل الاتجاهات التي نعتت نفسها بالدينية أو السلفية، وبين هذا وذاك وقف فريق أخر موقف المتردد محاولا التوفيق بين حداثة الغرب وتراث العرب. ومنذ ذلك الحين وحتي اليوم وأمتنا العربية الإسلامية تواجه تحديا حضاريا هو كيفية التوفيق بين حداثة الغرب والتراث العربي الإسلامي.

ومن خلال كل ما تم عرضه يمكن أن نتحدث عن إشكالية أرقت عقول الكثير من مفكرينا وهي: ما موقف مفكرينا من الحداثة الغربية؟ وهل هو موقف مبني على وعي بما يعنيه مفهوم الحداثة الغربية؟ وهل يمكن اعتبار الصدمة الحداثية الغربية شرطا تاريخيا مهما في تبلور التيارات الفكرية داخل الفكر العربي ؟.

1- صدمة الحداثة كشرط تاريخي لتبلور الفكر العربي الحديث:

ثمة شبه إجماع في الخطاب العربي الإسلامي على توصيف لحظة احتكاك العالم العربي بالغرب بأنها كانت بمثابة صدمة" وقد تعددت أوصافها فهي تارة الصدمة الاستعمارية، وتارة الصدمة الأوروبية أو الغربية، وتارة ثالثة الصدمة الحضارية أو صدمة الحداثة"(جورج طرابيشي،1991،ص18) لكن مهما تعددت أوصافها فمضمونها يبقى واحد إذ تعتبر من المفاهيم التي شكلت وبلورت الخطاب العربي سواء الحديث أو المعاصر. وكما يقول المفكر جورج طرابيشي:" أن هذا المفهوم المقتبس من علم الميكانيك وعلم النفس معا، يميل بالدلالية التي يتم بها توظيفه في الخطاب العربي، الى راد الفعل أكثر منه الى الفاعل،

الى المصدوم اكثر منه الى الصادم ، فبيت القصيد هنا مصير من تلقى الصدمة لا مصير من جاءت من الصدمة"(المرجع نفسه، ص18) ومعنى هذا أن الصدمة الحداثية هي الأساس الذي حرك مسار الفكر العربي بعد ما كان ثابتا، أي أن حركة الفكر العربي احدثتها الصدمة نتيجة قوة الدفع التي تلقاها، فتحول بذلك من العطالة والسكون والثبات الى الحركة، وهذه الحركة هي ما عبر عنها المفكرين العرب بالنهضة، يقول المفكر محمد عابد الجابري:" إن النهضة العربية الحديثة كانت أساسا ومنذ البداية وليدة الصدمة الحداثية مع قوة خارجية ومهددة، قوة الغرب وتوسعه الرأسمالي"(محمد عابد الجابري،1985،ص41)ونجد المفكر محمد عمارة يرى في الصدمة التي أحدثها اللقاء مع الغرب الوسيلة التي أيقظت ونبهت العرب من سبات عميق فيقول:" كان منطقيا ومبررا تماما ذلك المشهد الذي استيقظ له الشرق العربي وفتح بسببه عقله وعيونه، مشهد الغرب الذي عاد في صورة بونابرت ومن بعده من تلاه من الغزاة، لينتصر عسكريا، بعد أن انتصر في بلاده حضاريا...وعندما أدهش هذا المشـــهد عقـــل العـــرب وقلبهم، حرك فيهم ما يحركه مس الكهرباء، اذا هي لم تصعق فتميت، واذا هي وقفت عند حد الايقاظ والتنبيه"(محمد عمارة،1980،ص ص160.159).

لكن المتأمل لوضع الحركة الفكرية العربية الإسلامية سيدرك بعمق أن أحد أهم أسباب حالة التأزم والانحباس والعطالة التي تعيشها الحركة هو الهيمنة الحضارية الغربية (صدمة الحداثة لم تتوقف عند حد التنبيه بل تجاوزت ذلك الى حد الهيمنة والسيطرة)، فقد شكل ظهورها بداية هزة في ثقافتنا العربية مما أنتج توتراً على الكثير من الأصعدة ، فأدى إلى صراع المركزيات ولد هو الأخر "ميلاد ثنائية (الأصـــالة والمعاصرة، التراث والحـــــداثة) التي سيطرت على الفكر العربي، فكانت بذلك الإشكالية المركزية التي تتحرك حولها كل قضايا ما يسمى بالنهضة العربية"(ليندة بورايو،2017،ص339) حسب رأينا فإن ميلاد النهضة العربية يرجع إلى وجود المركزية الغربية(صدمة الحداثة) وسيطرتها على الذات العربية ، إذ أوجد هذا التحكم الغربي ثنائيات فكرية في الدرس الفلسفي والنقدي العربي من بينها ثنائية التراث والحداثة بما في ذلك جدلية التاريخ والمعرفة التي مايزال النقاش حولها مستمرا ومطروحا الى يومنا هذا رغم مضى مايفوق المائتي عام على بروزها .

تظهر جدلية التاريخ والمعرفة في كمية الوعي العربي بمحور التاريخ لكن هل معرفة التاريخ ومكوناته وشروطه كافية للاشتغال على التراث؟ وهنا كان الوعي بالتـــاريخ يستـــأنف مغامـــراته بتوجيهها "إلى البحث والتساؤل والقـــراءة والتفكيك والأدلجة ،والنقد

والتساؤل عن المصير، فكانت نتيجة الحالة التي واجهها الفكر العربي في شقيه النهضوي والمعاصر"(عبد الله عبد اللاوي،2012،ص172)نفهم من خلال هذا الكلام أن وسيلة استئناف وتدارك التأخر التاريخي والوعي بالتاريخ يستلزم ويشترط مناهج وآليات بحثية ونقدية، كل هذا جعل من الخطاب التاريخي المعرفي في الفكر العربي الاسلامي عموما ، والفكر العربي الحديث والمعاصر خصوصا خطاب متعدد ومضامينه مختلفة وآراؤه متعارضة. وعليه نتساءل: هل الخلل في توظيف آليات التفكيك والنقد والتحليل على الخطاب العربي هو السبب في الانقسام والتصارع بين المفكرين العرب والدعوة الى القطيعة بين التراث والحداثة؟ أم أن معرفة كينونة التاريخ تعارضت مع طبيعة الحداثة الغربية؟.

قضية الوعي التاريخي إذن كانت أحد الأسباب في ظهور انقسامات عديدة بين المفكرين العرب، مما جعل الواقع العربي واقعا يتنافس عليه ويتصارع فيه صنفين: صنف موروث من الماضي(يمجد الماضي)، وصنف متأثر بالفكر الغربي يسعى إلى إلغاء موروثنا الثقافي بحكم انتمائه الكلي للحضارة الغربية، وكانت نتيجة ذلك ظهور شرخ وانشطار بين مؤيد ومعارض، مؤيد يعتقد أن الخلاص يكمن في العودة إلى منابع الإسلام الأولى، ومعارض يرى في نقد التراث والتاريخ وتجاوزهما هو السبيل الوحيد القادر على تحقيق قفزة نوعية من خلالها نستطيع تأسيس خطاب عربي معاصر مطابق لمتطلبات الراهن المستجد.

ومع هذا وذاك نجد أن العقل العربي واصل عملياته النقدية المعرفية "في محاولة جادة منه لجعل التاريخ العربي معيوشا و مفتكرا ، مقروءا ومنتقدا ، منتظما ومفهوما، وبقدر ما تماهى الفهم والتفسير، وتعاظمت ضرورات التدوين العلمي الحديث في أرجاء الوطن العربي، أحيت الفلسفة العربية ذاتها من داخل تاريخ يبحث صانعوه العرب عن هوية ثقافية ، قائمة وملتبسة ،متحررة ومرتهنة، الأمر الذي جعل فلاسفة العرب يجددون النهوض النظري...مما أدى إلى زيادة بروز التفلسف العربي كمشروع عقلاني أكثر وأكثر"(ابراهيم بدران وآخرون،1987،ص7) المشروع العقلاني الذي بدأ يبحث عن" توليف علمي يتجاوز في وقت واحد الارتهان المزدوج للموروث غير المفسر علميا ، وللغريب الغربي والمغترب غير المتناسب مع حضارة عربية يؤسسها شعب يناضل في غير قطر عربي"(المرجع نفسه،ص7) إلا أن ما يعاب على هذا المشروع أنه مـــزال يقترض سماته ومنهجيـــاته من الموروث والمستورد ، أي أنه مزال يستند في صياغة إشكالياته على ثنائية التراث والحداثة التي أثرت فيه وأطرته ومازالت تهيمن عليه وبشكل كبير .

وإشكالية التراث والحداثة، الأصالة والمعاصرة "ليست في واقع الأمر سوى تعبيرا عن مظاهر وتجليات للواقع العربي المتشابك الأطراف المتداخل المستويات، الواقع العربي الذي يتشابك فيه الزمان والمكان ، القديم والجديد تشابكا يشوش الرؤية ويذكى نار التوتر والقلق ويضفي على قضايا الواقع طابعا إشكاليا، طابع الوضع المأزوم"(محمد عابد الجابري،1990،ص10)اذن فطبيعة الفكر العربي طبيعة متشابكة فكريا وزمنيا أنتجت حالا خاصا يعود حسب البعض من المفكرين الى ذلك الركود والفساد المعرفي السابق، أي أن سببه هو حالة "الإخفاق والانسداد التي واجهتها البلاد العربية منذ مطلع القرن التاسع عشر بعد أن تعرض مشروع النهضة والتقدم إلى انتكاسة فادحة"(ادريس هاني،2005)

ونتيجة لهذه الأسباب كان القرن التاسع عشر بمثابة النقطة الحاسمة في تحول الوعي العربي وتحول التاريخ العربي، إذ يعد هذا القرن مرحلة انتقالية "قرن انتقال الرأسمالية إلى عتبة الإمبريالية. ولهذا التحول الخطير تأثير كبير في بنية التاريخ العـربي والعـــالمي"(صالح شقير،2010،ص486)هذا التحول الذي مس الوعي العربي نعتبره أحد العوامل الرئيسية في تبلور المشاريع النهضوية العربية الإصلاحية المطالبة بإيجاد طريق تلتمس من خلاله الخروج من تبعية الآخر الذي منذ اتصالنا به ونحن نعيش الاغتراب في كل شيء : في العلم ، في المعرفة، في التاريخ، نحـــن نؤرخ لعلمنا بعلم الغرب ، ونؤرخ لمعرفتنا وثقافتنا بثقافــته ومعرفته هو ، أي أننا نؤرخ لتاريخنا بتاريخ الآخر (الغرب) وهذا غير منطقي وغير معقول لوجود خصوصية كل تاريخ ، فتاريخ الغرب له ظروفه الخاصة به التي نشأ من أجلها وتاريخنا أيضا له شروطه وظروفه الخاصة به أيضا.

كما أن هذه المشاريع النهضوية مطالبة أيضا بإيجاد الأسباب أولا والحلول ثانيا للأزمة المعرفية التي تعيشها ذاتنا العربية الإسلامية (الأزمة المعرفية خصوصا) فلقد عانت أثناء الاستعمار ويلات جعلتــها تتأخر قرونا عن الركب الحضاري ، ومازالت تعاني في عهد استقلالها تدهورا في جميع مجالات الحياة ؛ لهذا تحدّث المصلحون عن النهضة الإسلامية وما يقابلها التي أصبحت شغلهم الشاغل، فباشروا التفكير في أحوال ومتغيرات التاريخ العربي ومستويات التأخر فيه لمعرفتها أولا ومعرفة سبل تجاوزها ثانيا "لإفساح المجال لميلاد إشكاليات جديدة أكثر غنى وأكثر استجابة لخط التطور والتقدم"(محمد عابد الجابري،1990،ص15) لأن تجاوز جدلية المتغيرات التي عرفتها الحركة الفكرية العربية والتماشي مع آنية التاريخ وموضوعاته من شأنه أن يساهم في صياغة إيقاع جديد لتاريخ

جديد هو الآخر يستجيب لمتطلبات الراهن كما يستجيب لمتطلبات حالة الأزمة التي تعيشها الذات العربية الاسلامية.

2- الصراع السلفي والعلماني و أثر ذلك على فعالية الفكر العربي.

يبدو أن أسئلة واقعنا العربي أصبحت أشد صعوبة وتعقيدا أكــثر من أي وقت مضى ،كما أن الإجابات حــولها معقدة نظرا للضبابية المعرفية التي عرفها الخطاب الفكري العربي نتيجة انتقال النهضة وحمولتها من الآخر المنتج إلى الأنا المترجمة والمطبقة(المستهلكة)، ورغم أن الإجابات "أصبحت غير ممكنة أو ميسرة ، لكن لا بأس أن تظل أسئلتنا متنوعة بحثا عن إجاباتها العصية"(ابراهيم بدران وآخرون،1987،ص209) وتظهر الصعوبة والتعقيد أكثر مع سؤال النهضــة الذي استعصى هو الأخر على مفكرينا، وأعني به السؤال الذي طرحه البستاني: لماذا تأخر العرب وتقدم غيرهم؟ فسماع هذا السؤال يحلينا مباشرة إلى مرحلة التدهور والانحطاط التي عاشها العالم العـــــربي الإسلامي مع نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين.

هذا القرن الذي شهد تخلفا وتأخرا عاشته المجتمعات العربية في جميع مجالات الحياة شملت البُنى الاقتصادية والاجتماعيـــة والفكرية، بينما شهد العـــالم الغربي وضعا آخر مغايرا مختلف جــذريا؛ فالتطور والتقدم هو السمة البارزة له، كل هذا حتم على مفكرينا وعلمائنا الاقتناع بضرورة اكتشاف هذا الغرب، واكتشاف منجزاته، فالمركزية الغربية لها بنية تاريخية مغايرة مختلفة ومتحركة عن تلك الموجودة في العالم العربي الإسلامي والتي تتسم بالثبات والتكرار ، وكذلك الجمود والبطء.

والناظر المتمعن إلى النتائج التي تولدت إثرَ هذا التقابل بين بنيتين مختلفين هو: صراع ونزاع وصدام تاريخي على مختلف الأصعدة والمجالات، صراع ولد هو الآخر وعيا خاصا يبحث في وجود الفوارق المعرفية والفكرية التي أنتجت ذلك التباين الحضاري، أو " الفارق الحضاري بين الذات وبين الآخر،(بين دار الإسلام الممزقة) وبين أوروبا القوية المتقدمة المستعمرة"(صالح شقير،2010،ص491 نقلا بتصرف)من هنا بالذات أدرك المفكرين المسلمين أن العالم العربي يعيش أسوء مراحل وجوده الفكري والحضاري، ما دفعهم إلى إعطاء الأهمية القصوى لموضوع النهضة الهادفين من ورائه إلى ايجاد إجابات لأسئلة واقعنا المتخلف ثقافيا والمتأخر تاريخيا، والباحثين من خلاله عن حلول مستعجلة للتخفيف من حدة هذا التخلف الذي لازم عالمنا العربي الإسلامي مدة طويلة من الزمن.

كل هذا أثار اضطرابا فكريا اشتد أكثر مع التوسع الاستعماري للغرب ولم يهدأ بل تصاعد إلى أقصى الحدود مع المفكرين العرب أصحاب المشاريع النهضوية فأدى بهم إلى الانقسام إلى تيارات تختلف فيما بينها في كيفية التعامل مع الحداثة الآتية من الخارج، داخل هذه الأوضاع وداخل هذه التطورات وتسارعها برزت اتجاهـــات ثقافية، فكرية سياسية ، دينية... واعية بحقيقة الأزمة التي تعيشها أمتنا العربية الإسلامية، وواعية بأن إمكانية التقدم التاريخي تستوجب وتشترط قوة فاعلة بها تنظم أحوالنا وبها تبنى دولة عصرية قادرة على رسم أهدافها وتحقيقها. ولعل أهم خطابين برزا في الفكر الحديث هما الخطاب السلفي وكذا العلماني. والسؤال المطروح هنا هو: هل استطاعا الخطابين السلفي والعلماني تأسيس نصوص فلسفية كتلك الموجودة في الغرب؟ أم أنهما فشلا في ذلك وكان طرحهما أيديولوجي أكثر منه معرفي؟.

2- 1- الاسلام سبيلا للتحديث عند التيار السلفي:

يقـــول ابن خلدون" إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تـــدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر ، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال... وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول سنة الله التي قد خلت في عباده... "(ابن خلدون،1996،ص44) هذا الخطاب يعكس لنا صدق تنبؤ ابن خلدون في قوله بأن أحوال الأمم لا تدوم على وتيرة واحدة ؛ فهي تبنى من المتغيرات المختلفة تاريخيا، مكانيا وزمانيا وغيرها من العوامل المحدثة للتغير ومن ثمة فالتغير والتطور ظاهرة اجتماعية إذ أن التطور لا يقع ضمن فترات زمنية قصيرة بل بعد أحقاب متطاولة، وهذا يعني أن ابن خلدون كان على وعي بأن التغيير الاجتماعي يتسم بالبطء والتدرج اذ يقول:" ومن الغلط الخفي في التاريخ الذهول عن تبدل الأحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار ومرور الايام وهو داء دوي شديد الخفاء اد لا يقع الا بعد أحقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الآحاد من أهل الخليفة..."(المرجع نفسه،ص44) هنا يظهر موقف ابن خلدون واضحا، اذ تميز بنزعة عقلية في نهجه ومنهجه العلمي في التاريخ فحسبه أن التقدم والتطور يكون عبر مراحل متعاقبة وليس دفعة واحدة، بمعنى أن التطور يكون تدريجيا وكل جيل من الأجيال له طريقته الخاصة في التعامل مع ظروفه وأوضاعه الخاصة، فالأحوال والعوائد كما قال ابن خلدون لا تبقى على

طريقة واحدة بل تختلف باختلاف الاجيال واختلاف الاماكن وهنا تظهر قوة المتغيرات التي ينتقل بينها المجتمع الواحد.

داخل دائرة هذا الوعي الجديد لدى المفكرين العرب نشأت التيارات الفكرية العربية الحديثة كردّة فعل لحال الحركة الفكرية العربية الإسلامية ، وكردّة فعل لما يعيشه المسلمون من تأخر في العلوم وتخلف في الحياة الاقتصادية ، وأهم هذه التيارات التيار السلفي (الذي مثله السيد جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده) الذي يرى أن أسباب تدهور الحضارة الإسلامية وضياع مجدها هو :"إهمال ما كان سببا في النهوض والمجد، وهو ترك حكمة الدين والعمل بها وهي التي جمعت الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة "(علي المحافظة،1987،ص73) فعزة المسلمين وقوتهم حسب التيار السلفي رهينة بالعودة إلى الدين النقي، وهنا كانت المحاولة التي قدمها الأفغاني رفقة الشيخ محمد عبده(1849، 1905) هي محاولة إبراز أهمية البعد الديني (الإسلام) كمقوم أساسي في تحقيق النهضة، وكقاعدة لكل نهضة مرجوة.

وبهذا فالنصوص والمفاهيم التي أنتجها الخطاب السلفي كانت محاولة لإبراز أهمية الإسلام كمقوم وكأساس وحقيقة ننطلق منه لتأسيس أي نهضة مرجوة، لأنه حسب هذا الخطاب أن تجاوز التخلف الثقافي والتأخر الاقتصادي رهين بالعودة إلى منابع الإسلام الأولى .

ومنه يكون الخطاب السلفي قد قام بعمل متميز وجبار من خلال النصوص التي أنتجها والتي كانت من أكبر غاياتها إزالة الركام الفكري الذي اكتنف التصورات الباطلة والتفسيرات الخاطئة، فكان دوره هو نشر العلم والثقافة والوعي داخل المجتمع العربي الإسلامي لمجابهة التحديات الحضارية التي تواجهه وإيجاد حلول وإجابات لهذه التحديات.

وعليه فإن النصوص التي أنتجها الخطاب السلفي الإصلاحي كان أمرا واردا ومقصودا نتيجة الظروف التي كان يعيشها العالم الإسلامي، فانتشار البدع والخرافات وتراكمها ، وانتشار التصورات الباطلة والتأويلات الخاطئة ، والمنادات بفعل التجديد دون مراعاة خصائص المجتمع العربي الإسلامي دفع برواد التيار الإصلاحي السلفي إلى العمل من أجل إبراز أهمية الإسلام كمقوم أساسي لكل نهضة منشودة، فهو سبب العزة وسبب المجد.

ويبقى ما قدمه رواد الإصلاح من فهم للهدف وتحديدا للوسائل يؤكد أنهم كانوا متسقون منسجمون مع ثقافتهم وواقع أمتهم المتأزم ومتطلباتها، وأن هذه الأوضاع(وضع

التخلف والتأخر) ينبغي أن نستفيد منها للانطلاق نحو تأسيس فعل معرفي من شأنه أن ينقلنا من حالة اللامعرفة الى حالة المعرفة، وعليه فمن المنطق والمعقول أن نبحث فيما نملـــــك قبل أن نمد أيدينا إلى غيرنا، لأننا لا نستطيع أن نكون منسجمين مع أنفسنا ، ثقافتنا ، خصوصياتنا ، هويتنا...إذا استمرينا في نقل ما عند الغرب وامتداحه دون فحص ونقد ، ظنا منا أن مجرد النقل والترجمة لعلومه ومعارفه، مصطلحاته ومفاهيمه، أقواله ونظرياته...، سوف يحيلنا الى مستقبل زاهر، متقدم ومتطور، والحقيقة أن ذلك لن يكون اذا توسلنا بنفس الطريقة ، وتتبعنا نفس الاستراتيجيات ونفس المناهج، لأننا لو لاحظنا كيف تطور وتقدم الغرب سوف نعلم أنه استنار بثقافته، وانه انطلق من حاجياته ومشاكله(واقعه)، اذن اذا كان علينا التشبه بالغرب فما علينا سوى التوجه الى ثقافتنا وظروف حياتنا الاجتماعية ، السياسية، الاقتصادية، الدينية...من أجل البدء في رسم طريق النهضة، فقط علينا السعي العقلي والأخذ بالأسباب والاستفادة من تجارب وثقافات الأمم الأخرى.

إذن الإسلام (الاسلام الأول) هو الحل، وهو الوسيلة الوحيدة حسب التيار السلفي للتقدم، ومعرفته الصحيحة هي التي من شأنها أن تقودنا إلى بر الأمان، فنخرج به من الدرجات الأدنى إلى الدرجات العليا، من تخلف إلى تقدم، به ننتبه إلى ماضينا ومن خلاله ندرك واقعنا المتخلف، وعن طريقه نحقق النهضة، وبه نضمن مستقبل مستنير، والإسلام الذي قصده رواد النهضة ليس إسلام العثمانيين "الذي حولته المؤسسة العثمانية إلى أيديولوجية تكرس من خلاله مختلف مظاهر الاستبداد والاضطهاد القومي ،والجمود والفوضى والتجهيل ، والانحطاط الحضاري... لأنه حسبهم يعيق حركة التقدم التاريخي والحضاري...وإنما الذي قصدوه هو الإسلام الأول... الإسلام النقي، الإسلام في صيغته الأولى" (محمد نورالدين جباب،2011،ص16) الإسلام الأول الذي جاء به الخطاب القرآني يعني صيغ الأمر والنهي وإعمال العقل لفهم المقاصد، وحسب الخطاب السلفي فإن إهماله هو السبب الأول والعامل الأكبر في تدهور الحضارة العربية الإسلامية وضياع مجدها.

لا ننكر أن المسؤولية الملقاة على عاتق رواد إصلاح النهضة كانت كبيرة خاصة إذا نظرنا إلى الأوضاع التي كان يعيشها العالم العربي آنذاك، وبالرغم من ذلك كانت المحاولات التي قدموها، والنصوص التي أنتجوها دليل على وعيهم بما تعانيه الأمة العربية الإسلامية من أزمات في شتى المجالات ، ودليل على وعيهم أن إمكانية تجاوز هاته الأزمات لا يكون إلا بقوة فاعلة بها ننظم أحوالنا، وبها نضع اللبنة الأساسية لقيام نظام اجتماعي متماسك

ومستقر، ومن خلالها نشيد دولة أساسها الإسلام تكون عادلة تجمع بين المسلمين لا تفرق بينهم.

وبالتالي فالخطاب السلفي الذي مثله الشيخان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده كانت مهمته هي"...قلع ما رسخ في عقول العوام والخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص البشرية على غير وجهها الحقيقي "(محمد المخزومي،1931،ص189) فكانت مهمة التيار بذلك مهمة إصلاحية بالدرجة الأولى، وهي دعوة لتنقية العقيدة الإسلامية من الأساطير والخرافات التي علقت بها أيام انحطاط المسلمين.

ولقد اعتمد أصحاب التيار السلفي الاصلاحي على آلية العقل في عملية تغيير حال الأمة العربية الاسلامية المنحط إذ يعد العقل عندهم هو الآلية الإدراكية التي تحقق التحليل والفهم لمجمل الحقائق فهو "الوسيلة الوحيدة في التصور والتصديق، وتمييز الحقائق على وجه دقيق... وإذا كان حادا ذكيا متوقدا يخترع ويبدع ..." (رفاعة رافع الطهطاوي،1977.1973،ص284) لأن المجتمع الذي يعتمد على العقل في إدارة شؤونه من غير إفراط أو تفريط، ومن غير تقليد ولا ابتداع ولا تجاوز لحدوده هو المجتمع الصالح الذي يقبل أوامر الله ويمتثل لها ويفسرها تفسيرا عقليا، ما يعني الخطاب القرآني كان دائما داعيا للفكر والعقل والفهم، وبالتالي فسبيل التنوير هو تعقل القرآن وفهمه والعمل بما جاء به.

2-2- العلمانية سبيل للحداثة:

في مقابل الدعوة التي قادها الخطاب السلفي بواسطة اعتماد أصول الإسلام عن طريق بعثها وتجديدها ، نشأ تيار آخر له طابعه الخاص ، وله اهتماماته الخاصة أما الطابع فهو ليبرالي، وأما الاهتمـــام فكان متوجـــه نحو دراســـة الفكر الغربي، ودراسة أنظمته وأفكاره وثقافته التي يرى فيها أنها الأفضل والأصلح لنهوض الشعوب العربية وتقدمها، فالوسيلة الوحيدة للنهوض حسب هذا التيار هي الأخذ بالنموذج الغربي والاستفادة من تجربة النهضة الأوروبية ،فالفكر العربي لا يمكنه التقـــــدم ولا التطور إلا بعقل ناهض، والعقل الناهض موجود في أوروبا والسبب يعود إلى تأثير الفوارق التاريخية الحاصلة إذ "أن الفارق التاريخي بين التأخر الإسلامي والتقدم الأوروبي كبير جدا... ولا سبيل لتجاوزه إلا بالتوجه للغرب والمرور بالطريق الذي عرفته أوروبا"(صالح شقير،2010،ص493).

وترجع بذور نشأة هذا التيار "إلى المفكر بطرس البستاني(1819-1883) الذي ورد في إحدى خطاباته مدى حرصه على الأخذ بالنمـــــاذج الإفرنجية وتأكيده على أن الفكر

الشرقي لا يمكنه النهوض ولا التقدم إلا بالاطلاع على فكر أوروبا الحديث ، وعليه فإن العقلانية العثمانية تحتاج إلى إصلاح وتعديل عن طريق الاقتباس من العقلانية الأوروبية، وهذا لا يتم إلا بإصلاح دويلات الشرق باقتباس المؤسسات والنظم من الغرب"(قرواز الذوادي،2009.2008،ص 41).

لكن ما يعاب على بطرس البستاني أنه كان أقل جرأة من تلميذه شبلي شميل (1853-1917) في الدعوى إلى إصلاح العقل الشرقي، والدليل على ذلك أن هذا الأخير قد ألف كتابا بعنوان « شكوى وأمل» وأرسله إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني رغبة منه في تغيير أسس العقلانية العثمانية الفاسدة والمتمثلة في استغلال السلطة لمنع نمو العقل البشري نموا سليما، ومن جهة أخرى عدم اعترافها بحقوق الأفراد وحريتهم ، وكل هذا يؤدي في نظره إلى جمود العقل بالدرجة الأولى وبالتالي انتشار الجهل وإعاقة التقدم ، وهذا ما يدفعنا إلى الاقتباس من العلوم الحديثة التي قامت عليها الحضارة الغربية المتفوقة دون تردد"(المرجع نفسه،ص42) نجد هنا دعوة صريحة إلى ضرورة الأخذ من الآخر الغربي أو ما نسيمه بالمثاقفة لتجاوز تلك الفوارق.

ولقد حمل لواء هذا التيار المفكر فرح أنطون(1874-1922) الذي يعد من أبرز المثقفين الذين حملوا هم التقدم والنهضة في المشرق العربي الإسلامي ، وقد تميز بثقافة مترامية شملت التاريخ والأدب ، الفلسفة والعلم..." ودون أن نتجنى على الحقيقة ونُتهم بالمبالغة، فالرجل تضلع بثقافة الغرب ومعارفه ، ففتح خزائن هذه الثقافة وتَعرف على رجالاتها ورموزها..."(ألبرت حوراني،1977،ص304) فتأثر بهم وبأفكارهم واعتبر المدينة الغربية بمفاهيمها وشعاراتها ومنجزاتها العلمية هي المثال الذي يجب أن نتبعه ونقتدي به إذا ما أردنا النهوض بمجتمعنا العربي الإسلامي. لكن نظن أن صياغة أي خطاب تاريخي معرفي خاص يجب أن يستجيب ويراعي لمشاكل وحاجات أي واقع ، ومنه فالإتيان بالجاهز من الغرب وتطبيقه على الواقع العربي الإسلامي هكذا مباشرة يكون له نتائج غير مرغوب فيها.

كل هذا كان سبب دعوته الصريحة للاتجاه نحو المركزية الغربية لأنه من دون ما أنتجته النهضة الغربية لن تكون هناك نهضة عربية؛ فوجود المفاهيم والنظريات والمناهج الغربية يدفع العرب بتجاوز تخلفهم وتأخرهم ، والعلمانية أحد تلك الآليات التي بها ندخل إلى العصر بأدوات العصر وروحه ، وبها نستطيع "مجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد لمزاحمة أهله وإلا جرفنا جميعا وجعلنا مسخرين لغيرنا"(سمير حمدان،1992،ص5).

وبالتالي فدعوته تجلت في محاولته لفصل الدين عن العلم ، وذلك بتحديد الحقل الخاص بكل منهما "فهناك قوتان إنسانيتان مستقلتان: العقل والقلب ، ولكل منهما قواعد عمله، ونطاق نشاطه ، وطرق إثبات حقائقه. فالعقل يستند إلى الملاحظة والاختبار ، وحقله هو العالم المخلوق؛ أما القلب ، فيسلك طريق القبول بما تحويه الكتب المنزلة بدون أن يتفحص أساساتها، ومواضيعه الخاصة إنما هي الفضائل والرذائل والحياة الأخرى ، وما يتوصل إليه الواحد منها لا يمكن للآخر دحضه ، لذلك يجب أن يحترم الواحد الآخر، وأن لا يتجاوز الواحد حدود الآخر"(فرح أنطون،1988،ص41 نقلا بتصرف) وعلى هذا الأساس رأى فرح أنطون أن الوسيلة الوحيدة لفك النزاع بين العلم والدين هو تحديد مجال كل واحد منهما ، وجعل لكل منهما اختصاصا مستقلا يكون بالفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية.

لكن فرح أنطون كان يعي حساسية هذا الطرح الذي قدمه داخل مجتمع يؤمن بالأديان المنزلة ، لذا كان خطابه موجه إلى فئات بعينها "وهي فئة العُقلاء الذين عرفوا مضار مزج الدنيا بالدين في عصر كهذا العصر ، فصاروا يطلبون وضع أديانهم جانبا في مكان مقدس محترم ليتمكنوا من الاتحاد اتحادا حقيقيا ومجاراة تيار التمدن الأوروبي الجديد..."(المرجع نفسه،ص41) صحيح أن الفصل بين السلطة الدينية والأخرى العقلية من شأنه معرفة حقيقة كل سلطة لكن هل هذا الفصل سيحقق مدارك الحقيقة الفلسفية العقلية؟.

وانطلاقا من ذلك فقد كانت دعوته صريحة إلى ضرورة اعتماد العقل كأداة لتمحيص وفهم الواقع ، فلا يجب حسب أنطوان تقييد حركة العقل بإخضاعه لشروط وقواعد الدين، للتعارض الحاصل بينهما ، فكل سلطة لها قواعد عملها ونطاق نشاطها وطرق إثبات حقائقها. لذلك دعا إلى انتهاج طريق العقل لتجاوز الوضعية المزرية التي كان يعيشها العالم العربي الإسلامي إبان العصر الحديث ، وبالعقل وحده يمكننا حسب أنطون إدراك الفارق التاريخي بين التأخر الإسلامي وبين التقدم الأوروبي.

إذن فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية عند أنطون أمر لابد منه لأن غرض الأديان تعليم الناس عبادة الله ، أما غرض الحكومات هو حفظ أمن الأفراد وحرياتهم. وهذا ما يُفضي إلى تحقيق مبدأ المساواة بين أبناء الأمة الواحدة وحصول كل ذي حق حقه .

فالأمم والمجتمعات التي نحت هذا المنحنى واتجهت إلى العقل والعلم كان مصيرها التقدم والارتقاء ، أما تلك المجتمعات البدائية التي تعاني التخلف والتأخر ، وتشهد تبعية فلقد كان مآلها الفشل بسبب هيمنة وسيطرة النظرة اللاهوتية الدينية التي لعبت دورا حاسما في توجيه وتحديد التعامل مع الطبيعة والتاريخ. لذا فالمجتمعات العربية الإسلامية اليوم في نظر أنطون في حاجة ماسة إلى العلوم بأنواعها إذا ما أرادت التقدم والارتقاء "لأن الأمم بعد تمـــدنها وتكـــونها لا تتوقف على الدين بل على العلم"(ريم منصور الأطرش،(د.ت)،ص111) ومنه حسب رأيه فإنّ حدوث نهضة عربية معاصرة تلتزم بالعقل واستخدام آليات البرهان والمنطق العقلي بعيدا عن الفكر اللاهوتي.

ويرى أنه إذا تواصل الجمع بين الدين والعقل فإن الضعف سيستمر والحل حسبه في الفصل بين محور الدين ومحور السلطة العقلية ، والحل حسب أنطون يكون بتأكيد أمر أنه " ليس من شؤون السلطة الدينية التدخل في الأمور الدنيوية لأن الأديان شُرعت لتدبير الآخرة لا لتدبير الدنيا ، ومن يلزمها بتدبير الدنيا فإنه ينتهي إلى الفشل وإن نجح في البداية"(فرح أنطون،1988،ص250) فالجمع هنا حسب انطون يصاحبه العنف ضد المخالف لدين ولمذهب الطبقات الحاكـــمة، لأن "الوحدة الحقيقية يأتي مصدرها العقل أو القلب ، والإيمان بدين ما لا يكون بالقهر بقدر ما يكون بالحوار"(بوعلام سمير،2019،ص145) نفهم هنا بداية الحقيقة تظهر في القطيعة بين الدين والعقل؛ أي النهضة الغربية حدثت بفعل هذا الفصل ومنه مبدأ حرية الفرد يكون بتحرير العقل من سلطة الدين ، وعندما تتوفر الحرية للأفراد تتحرر عقولهم من كل سلطة تمنعهم من التفكير ، فتتوسع مساحات الحرية للعقل بعدما كانت ضيقة أو شبه منعدمة في أغلب الأحوال ، فيكبُر الإبداع ويظهر ويزيد بعدما كان خفيُ غير ظاهر بسبب ثقافة الشرح والتكرار وهذا ما حدث في الغرب فعلا.

فسر تقدم مركزية الغرب وتطوره حسب أنطون هو انتصاره للعقل الذي به يتم التغيير وبه يستمد الإنسان مشروعية أفكاره بعيدا عن العقائد المغلقة التي تعيق فعل النهوض لمجتمعات هي من حيث الطبيعة متعددة عقديا وثقافيا .

يتضح مما سبق أن المفاهيم والنصوص التي أنتجها الخطاب الليبرالي يعكس وعي هؤلاء بحال الأمة العربية وما تعانيه من أزمات جعلتها تتأخر عن الركب الحضاري ، كما يعكس أيضا إحساسهم العميق بالتأخر والتخلف التاريخي الذي ساد واقع المجتمعات العربية ، فكان نداء الواقع والاستجابة له أمرا ضروريا مما حتّم وضع استراتيجية واضحة

المعالم لتجاوز هذا الواقع المتأزم، استراتيجية " أخذت على عاتقها مسؤولية التصدي لهذه الإشكالية المتعددة الأبعاد"(فرح أنطون،1979،ص18)الفكر الليبرالي عزز من التواصل مع الآخر الغربي من أجل قيامة نهضة عربية حديثة معاصرة، لأنه بالتوجه إلى الغرب واستعراض محاسنه ، والعمل بالأسباب التي بها وصل الغرب إلى ما هو عليه الآن، و الأخـــذ بقيم العقل والعــلم يمكن أن نتقدم، كما يمكن أن نحل القضية الأم وهي: كيف يمكن تحقيق التوازن بين السلطتين المدنية والدينية؟ وكيف نستطيع مسايرة تيار التمدن الأوروبي مع الحفاظ على الهوية العربية الإسلامية؟.

يقول الطيب تيزني: " كان التيار الذي قاده محمد عبده قد انطلق من أن الإجابة عن ذلك السؤال عبر قناتين: الأولى: تتمثل في العودة إلى الإسلام الأول النقي من موقع هذا الإسلام، والتوجه بعد ذلك إلى الغرب ، وذلك على نحو تلفيقوى في غالب الأحيان، وسلفوي في بعض مظاهر الموقف من التراث. أما القناة الثانية فتتجسد بالنظر إلى المستبد العادل إسلاميا على أنه مفتاح الدخول إلى مواجهة عملية لذلك الأخير"(نادية حساين،2015.2014،ص102).

وعلى هذا فالأمر يستوجب إيجاد جامعة (دولة) سياسية دينية توحد الشعوب العربية من موقع التشريع الإسلامي وهيمنته في كل القطاعات المكونة للبلد ، مع الحرص على التعايش بسلام مع الأقليات الدينية(المسيحية ، اليهودية) واحترام حقوقهم ، ولكن في ضوء ذلك التشريع وبالاعتبارات العلمية المنطلقة منه(المرجع نفسه، ص ص103.102).

وهكذا فالدولة التي دعا إليها محمد عبده في نظر التيار العلماني هي دعوة إلى التخلف والتأخر، ودعوة إلى التدهور والانحطاط ، لأن الالتفات إلى الوراء والانغلاق ضمن أطر ومفاهيم وقيم أنتجت في ظروف غير ظروف ذلك العصر ، وفي معطيات غير معطيات ذلك العصر يجعل من تلك المفاهيم والقيم قيم بالية غير معاصرة ، في حين أن تطور الحضارات الأوروبية كان بسبب مكتسبات العلم وبديهياته ، ومكتسبات العقل ومنطقيته.

إذن يستحيل الوصول إلى ما وصل إليه الغرب في نظر فرح أنطون بدون فعل عملية تجاوز التراث ، والذي يقول بأن "إحراز مستوى الغرب الحضاري يكون بالالتفات حول لواء الدين هو في بساطة تجاهل طريقة تطور الحضارات ، وفشل في فهم الطبيعة الإنسانية. إن الفهم السليم للتاريخ ولما يحرك عمل الإنسان هو وحده القادر على الوصول إلى نظرية شرعية للمجتمع ولأساليب إصلاحه. فهم كهذا ، لا يمكنه أن يستمد إلا من العــلم ، أما الفكر الديني فــإنه لا يجلب للمسألة إلا التشويش ، وأن اعتبار الوحدة الدينية كما (فعل

الأفغاني) أساس التقدم الاجتماعي أفضى إلى ضعف وانحلال متزايدين... وإلى التأخير والتخلف"(هشام شرابي،1978،ص87) هنا تتضح المفارقة بين السلطة الدينية والعقلية؛ إذ التقدم الحضاري يكون بتجاوز سلطة الدين التي تتحكم في سيرورة الفرد فتجعله أمام قوانين لا عقلانية حسب أنطون والتيار العلماني الداعي إلى القطيعة مع التراث .لكن السؤال المطروح هنا: هل استطاع الفكر العربي حسب التيار العلماني أن يتشكل ويتبلور ويحقق حداثة عربية بتجاوزه عتبة التراث؟ وكيف يمكن لنا أن نتعامل مع تراثنا العربي الإسلامي؟ هل نرفضه جملة وتفصيلا ونلغيه وننقطع مع الماضي؟ أم ماذا؟.

كانت اجابة ممثلو التيار العلماني على هذا السؤال أن السبيل الوحيد للنهضة هو تجاوز التراث، تجاوز الفهم التقليدي للقرآن، فلا سبيل إلى الحداثة بمفهومها المعاصر إلا بتحرير العقل العربي من قيود التراث أولا والنص القرآني ثانيا الذي حسبهم جمدا الفكر ، وتسببا في عجز العقل العربي عن أداء دوره ، فحالا دون الوصول إلى التنوير الذي وصلت إليه أوروبا، التنوير الذي كان له الفضل الكبير في إخراج أوروبا من ظلامية العصور الوسطى وعتامتها التي سيطرت فيها ثقافة النصوص إلى عصر التنوير الذي سيطرت فيه ثقافة العقول.

4- خاتمة:

ختاما نقول بأن الخطابين الإصلاحي السلفي والعلماني الليبرالي قد عبرا بعمق عن وعيهما بالحالة التي كانت تعيشها الأمة العربية الإسلامية-حالة التخلف الثقافي والتأخر التاريخي- هذا الوعي الذي نتج من خلال الطروحات التي قدمها كلا من الخطابين في محاولة منهما لتجاوز الفارق التاريخي بين التأخر الإسلامي والتقدم الأوروبي للسير نحو تحقيق نهضة طال انتظارها. فهل سيتشكل الوعي العربي الذي يخلق النهضة؟ وهل استطاعا الخطابين السلفي والعلماني بالنصوص التي أنتجاها تحقيق ما يسمى النهضة؟.

ما نلاحظه هو تواصل الجدل المطروح حول أحقية أي تيار لإحداث النهضة العربية المعاصرة ، فقد ظل استمرار السجال النهضوي بين الأطروحة السلفية والأطروحة العلمانية مهيمنا على مناخ الوعي العربي، فلغة الخطاب السلفي الداعية الى التشبث بالماضي وبقيمه ، ما يعني رفض كل ما يمت للغرب بصلة ، لأنه يرى أن قوته ونقائه تكون بالانتماء إلى الماضي لأنه الأصل وبه يتم الخلاص ، فحسبهم الاكتفاء على الذات والاعتصام بالموروث سبب القوة والمنعة وبالتالي الرجوع إلى العصر الذهبي للأمة عصر النقاء ، عصر التقدم والتطور.

أما الموقف الذي تبناه الخطاب العلماني يختلف كبير الاختلاف عن سابقتها(السلفية) في نتائجها ، ومنطلقاتها ، مفرداتها ومناهجها ، فنبذ الشرق وتراثه وتشبث بالغرب وقيمه في لغة الخطاب العلماني ، رفضه وإلغائه كان إيديولوجيُ الى أبعد الحدود، لأنه لم يكن يوما الانفصال عن التراث والانقطاع عنه في لغة الخطاب المعرفي الانساني (وحتى عند الغرب)سبب في عدم تحقيق النهضة. وبالتالي فطريق النهضة العربية يجب أن يمر من التراث، تراثنا نحن لا تراث الغير فالغرب مثلا لم يحقق نهضته الا بالانتظام مع تراثه لا تراث غيره ، وعليه فالانطلاق نحو تأسيس فعل معرفي عربي حقيقي يكون بالارتكاز على تراثنا نحن لا تراث غيرنا.

إذن الجدل بين الخطابين السلفي والليبرالي فتح باب الاختلاف المعيق للنهضة واستمرار هذا السجال هو أن الطروحات التي قدمها كلا من الخطابين ظلت مجرد محاولات في التقليد سواء بتقليد الماضي والتوجه إليه ، أو بتقليد الغرب والتوجه نحوه.

إن فعل المماثلة التي مارسها الخطاب العلماني بين التراث العربي والتراث الغربي زاد الطين بلة لأن استيراد الحلول الغربية الجاهزة دون وعي ، دون تفحص وتمعن، تحليل ونقد، وإسقاطها على الواقع العربي؛ الواقع الذي له مميزاته الخاصة وظروفه الخاصة كذلك، واقع يختلف شديد الاختلاف عن الآخر الأوروبي بكل أبعاده ومعطياته. ليس منطقيا وعقلانيا فالتاريخ لا يعيد نفسه وحسبي أن أقول إن التعلم من الآخر وسيلة وليس غاية، ومجرد باعث ومحرك وليس بديلا عن الشيء ذاته، وبالتالي فمن غير المفيد أن نتماثل بين النهضة الأوروبية الحدث التاريخي بالنهضة العربية المشروع الذي ما فتئ العرب يحاولون بلوغه ويجاهدون من أجل تحقيقه. والسؤال أو الأسئلة التي يمكن أن تثار حول تلك الجهود والمحاولات هي: هل ما قدمه رواد النهضة من أفكار ورؤى وتصورات كاف للانتقال بالمجتمع العربي الإسلامي من حالة التأخر والتخلف إلى حالة التطور والتقدم؟ أم أن رواد النهضـــة فشلوا في انجاز هذه المهمة المعرفية الفكرية؟ وما هي أهم أسباب الفشل؟ هل ترجع إلى المنهجية التي اتبعوها أم إلى الواقع الذي تعاملوا معه؟

المراجع:

بدران، إبراهيم وآخرون. (1987). الفلسفة في الوطن العربي المعاصر (بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الأول الذي نظمته الجامعة الأردنية)، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت(لبنان).

ابن خلدون (1996). المقدمة، مج1، تحقيق: المستشرق الفرنسي أ.م. كاترمير، طبعة باريس 1858، مكتبة علي مولا(لبنان).

حوراني، ألبرت. (1977). الفكر العربي في عصر النهضة، تر: كريم عزقول، دار النهار للنشر والتوزيع، بيروت(لبنان).

بوعلام، سمير. (2019). فرح أنطون وتجذير العلمانية في اليومي العربي الإسلامي"، مجلة مفاهيم الدراسات الفلسفية والإنسانية المعمقة، العدد السادس، ص96.116.

طرابيشي، جورج. (1991). المثقفون العرب والتراث، ط1، رياض الريس للكتب والنشر.

الطهطاوي، رفاعة رافع. (1977.1973). الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي، تحقيق محمد عمارة،ج4،المؤسسة العربية للدراسات والنشر(1973-1977)، بيروت(لبنان).

الأطرش، ريم منصور. (د. ت). العلمانية، مداد مركز دمشق للأبحاث والدراسات، سوريا، ع3.

أبو حمدان، سمير. (1992). موسوعة عصر النهضة، فرح أنطون صعود الخطاب العلماني، (د. ط)، الشركة العالمية للكتاب دار الكتاب العالمي، بيروت(لبنان).

شقير، صالح. (2010). الحضور الفلسفي في الفكر العربي الحديث، مجلة جامعة دمشق، المجلد 21 عدد الأول والثاني ،ص554.481.

عبد اللاوي، عبد الله. (2012). حفريات الخطاب التاريخي العربي، ط1، ابن النديم للنشر والتوزيع ودار الروافد الثقافية، الجزائر.

أنطون، فرح. (1979). المؤلفات الروائية، تقديم أدونيس الفكرة، ط1، دار الطليعة، بيروت(لبنان).

أنطون، فرح. (1988). ابن رشد وفلسفته، مع نصوص المناظرة بين محمد عبده وفرح أنطون، تقديم: طيب تيزني، ط1، دار الفرابي بيروت(لبنان).

قرواز، الذوادي. (2009.2008). موقف حسن حنفي من العقلانية العربية المعاصرة، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، إشراف: فتيحة زرداوي، جامعة باتنة(الجزائر).

بورايو، ليندة. (2017). جدلية المعرفي والإيديولوجي في الخطاب العربي المعاصر (التراث نموذجا)، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، العدد 13،ص358.335.

المخزومي، محمد. (1931). خاطرات جمال الدين الأفغاني، المطبعة العلمية اللبنانية، بيروت(لبنان).

الجابري، محمد عابد. (1985). اشكالية الأصالة والمعاصرة في الفكر العربي الحديث والمعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت(لبنان.(

عمارة، محمد (1980). العرب والتحدي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب(مصر.(

جباب، محمد نور الدين. (2011). الفكر العربي جدل المقدس والمقتبس، قراءة في خطاب الإصلاح الديني في عصر النهضة"، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، عدد17.

حساين، نادية. (2015.2014). إشكاليات التراث في الفكر العربي الحديث والمعاصر، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة، إشراف: السعدي بن أزوار، جامعة الجزائر02.